سُبل الهدى في نظر علماء العرب

للدكتور محمد سويسي

ان العلمـــاء المسلمين قد جعلوا العقـــل في المنصب الاعلى، وكثيرا ما صرّحوا « انـــه اعظم نعم اللـــه عندنا، وانفع الاشياء لنـــا، واجداها علينا » (١) وهو « الشيء الذي بـــه نتصور افعالنا العقلية قبل ظهورها للحس، فنراها كان قـــد احسسناها، ثـــم نتمثل بافعالنا الحسية صورها فتظهر مطابقة لمـــا تمثلناه وتخيلناه منها » (١) واستنتجوا من ذلك انـــه حقيق علينا « الا نجعل العقـــل، وهو الحاكم، محكوما عليه، ولا وهو الزمام مزموما ، ولا وهو المتبـــوع تابعا ، بل نرجع في الامور اليـــه، ونعتبرها بـــه، ونعتمد فيها عليـــه » .

وجعلـــوا اسمى اغراضهم « طلب الحق لذاته »، وجعلوا طالب الحق « المتّبِـــع الحجة والبرهان ، لا قـــول القائل الذي هو انسان » (١) .

وقـــال بعضهم: « البرهان القاطع لا يُدرا بالظواهر، بـــل يسلَّـــط على تاويل الظواهر ». وقال متطرفوهم : « اذا تعارض العقـــل والنقل في مطلوب فيتبع العقل ، ويتتبع المخلص في المنقـــول ليوافق المعقول، إن امكن، والا يعـــد المنقول من قبيل المتشابهات » (٢) .

ولكنهـــم سرعان ما تيقنوا ان لا سبيل للعقـــل في تاويل بعـــض المسائل، وسرعان مـــا اضطروا الى تقسيم العلوم الى علوم نقليـــة والى

---

(١) الرازي : الطب الروحاني ص ١٨

(٢) ابو البقاء الحسيني : كتاب الكليات ص ٧١٥ وما بعدها

علـــوم عقلية . واعترفوا ان سبل الحـــق مختلفة متعددة بحسب ميادين البحث ؛ وقد تتضافر المصـــادر المعوَّل عليها في مسالة من المسائـــل فـــيأتي بعضها لبعض مساعدا ومعينـــا ...

ولخصـــوا هذه المصادر في الحس والحدس والعقـــل والقياس والالهام والوحي الالهـــي .

فينصـــح البيروني عن غرضه في كتابـــه « الآثار الباقية » فيحصره في « استفراغ الوسع واستنفاد الجهـــد في الابانة عن مقصده علـــى حساب ما بلغه علمـــه إنْ بسماع وإنْ بعيان وقياس » (٢) ويضيـــف « ان اقرب الاسباب المؤديـــة الى ما سئلت عنه هو معرفة أخبـــار الامـــم السالفة وانباء القرون الماضية،لأن اكثرها احوال عنهم ورســـوم باقيـــة من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بمـــا يشاهَد من المحسوسات (٣) » .

ويجمـــع ابن الهيثم بين الحس والنظر فيقـــول : « فرايت انني لا اصل الى الحق إلاّ مِـــن آراء يكون عنصرها الامور الحسية،وصورتهـــا الامـــور العقليـــة » .

ويقول ابـــن سينا : « ان النفس ، بعد ان تستعين بالحواس ، ترجع الى ذاتهـــا شيئا فشيئا (٤) » اي انها تعتمـــد اولا على المـــادة ثم تتخلص منها مقدارا فمقدارا،كيما ترتقي الـــى احكام معقولة صرفة ، وكثيرا ما عاد ابـــن سينا الى هذا المعنى المتمثل في كون « الجســـم لا بـــدّ منه لتستكمل النفس قوتهـــا النظرية » .

« والانفس تحدث كلما تحدث مـــادة بدنية صالحة لاستعمالهـــا اياهـــا » (٥) .

---

(٣) الاثـــار الباقيـــة ص٤

(٤) المجاة ص ٥٠

(٥) الشفاء ج ١ ص ٢٥٤

والجسم بحواسه الظاهرة والباطنة هو الذي يقدم للعقل الادراكات الجزئية المشخصة، فيحاول العقل بالتفكير فيها ان يستخرج منها الادراكات الكلية والمعارف المرتبطة بها ...

وعن علاقة النفس بالبدن يقول ابو الثناء محمود بن عمر الشيباني المعروف بابن رقيقة (ت. بدمشق سنة ٦٥٣هـ / ١٢٨٧م) من قصيدة شديدة الشبه بعينية ابن سينا (الطويل) :

اقول لنفسي حين ابدت تشوّقًا ... الى العالم الاعلى ورويدك يا نفسي
محالاً ترومين النجاة وانت في ... المهالك من جنس الطبيعة والحسّ
ودونك بحرٌ ان تعدّيت لجّه ... امنت وفزت بالخلاص من الحبس
فان رمت وصلا نحو سنخك فاكشفي ... غطاءك وانضي ما عليك من اللبس
ولا تقبلي نحو الكثيف فتحرمي ... مجاورة الاطهار في حضرة القدس

الى ان يقول :

وصلت على كره الى الهيكل الذي ... به اعتضت بالذعر الطويل عن الانس
وما كان هذا الوصل الا لترجعي ... منزهة بالعلم عن وصمة الوكس (٦)

ولئن زعم جابر بن حيان أن الصناعة « انما تكون لذي الراي الصحيح، والقياس الواجب، والدرس الدائم للعلم الحق الواضح »، وانها « انما تحتاج الى حجج وبراهين »، وان « البرهان اصدق شاهد واعدل حاكم » (٧) فان معظم علماء العرب يقولون بوجوب التجربة المادية، وباستقراء الموجودات وتتبّع خواص المحسوسات ؛ ومن امثالهم : « المشاهدة اقوى دليل »، ويقول ابن البيطار : « فما صحّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لدي بالخبرة لا الخبر، ادخرته كنزا سريا، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيا » (٨) .

(٦) عيون الانباء ج ٢ ص ٢٦٦

(٧) كتاب اسطقس الاس الاول نشرة هلميارد، باريس ١٩٢٨ ص ٧٠ — ٧١

(٨) من مقدمة كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية

ويقول البيروني : « انما يلـذّ العاقل لـذّة نفسانية اذا لاحظها بعين البصيرة والاعتبار ، كما يلـذّ الغافل لـذّة جثمانية في الاصطباح والاغتباق ، والتقلب بين الخمـر والخمار ... » ويستشهد بقـول اللـه تعالى ، وقولُه الحقّ المنـير : « ويتفكرون في خلـق السماوات والارض ؛ ربّنـا ما خلقت هذا باطلا » .

ويربـط ابن سينا بين التجربة والتذكّر، وهي فكـرة افلاطونيـة، فيقول : « اذا تكرر في احساسنا وجود لشيء مثل الاسهال للسقمونيا ، والحركات المرصودة للسماويات، تكرّر ذلك منـا في الذكر . واذا تكـرر منـا ذلك في الذكر حدثت لنـا منه تجربة بسبب قياس اقترن بالذكـر . وهو أنـه لـو كان هذا الامر ، كالاسهال مثلا عن السقمونيا ، اتفاقيـا فرضيا ، لا عن مقتضى طبيعته ، لكـان لا يكون في اكثر الامر من غـير اختلاف ، حتى انـه اذا لم يوجد ذلك استندرت النفس الواقعة، فطلبـت سببا لمـا عرض من انـه لم يوجد . واذا اجتمع هـذا الاحساس وهذا التذكر مع هـذا القياس، اذعنت النفس بسبب ذلـك التصديق بـأن السقمونيا من شأنهـا، اذا شربت، ان تسهل صاحبهـا » (٩) ويضيف :

« ان التجربة ليست تفيـد العلم لكثرة ما يشاهد على ذلك الحكم فقـط ، بل لاقتران قياس به قد ذكرناه . ومع ذلك فليس تفيد علما كليا قياسيا مطلقا بـل كليا بشرط » . ويواصل ابـن سينا حكمه على التجربة بقولـه :

« ولسنا نقول ان التجربة امـان عن الغلط، وانها موقعة لليقين دائمـا ؛ وكيف والقياس ايضا ليس كذلـك ! بـل نقول ان كثيرا ما يعرض لنـا اليقين عن التجربـة ، فيطلب وجـه ايقاع ما يوقع منها اليقـين » (٩) ومما نلاحظ في هذه الفقرات :

اولا : ان ابـن سينا يقرن ما تكرر في احساسنا بالتذكـر ؛ وهي نظرة، كما اشرنا اليه ، مستمدة مـن الفلسفة الافلاطونية ، ويلخصهـا الفارابي فيما يلـي :

---

(٩) الشفاء المنطق ج ٥ البرهان ص ٩٥

« ان التعلـــم تذكّر ، وان التفكر هو تكلف العلـــم ، والتذكر تكلف الذكر ، والطالـــب المشتاق متكلف ؛ فمهما وجـــد مهما قصد معرفته طلب دلائل وعلامـــات ومعاني ما كان في نفسه قديمـــاء فكأنه يتذكر عنـــد ذلك» . بل هو يتجاوز ذلك ويقول : « ان العقل ليس هو شيئا غـــير التجارب ، وكلما كانت هـــذه التجارب اكثر كانت النفس اتـــم عقلا ... » (١٠) .

ثانيا : انـــه يرى أن العلم الحق هو اليقين الذي تطمئن له النفس، ويعترف أن المعرفة المعتمدة على التجربة وحدها انما هي معرفة نسبيـــة لا تبلغ اليقين المطلـــق ، فكيف تكتسب المعلومات اذن ، وما هي طريقة الكشف عن الحقيقـــة ؟

يعـــود ابن سينا مرات الى هذا الموضوع في النجـــاة وفـــي الاشارات، ويحصر المعرفة والعلـــم في التصور والتصديق، وأما آلتاهمـــا فهما الحـــدّ والقياس . وفي ذلك يقول محمد بن المجلي بن الصائغ العنبري (الخفيـــف) :

ابلـــغ العالمين عنـــي بانـــي كلُّ علمي تصوُّرٌ وقياسُ (١١)
قد كشفتُ الاشياء بالفعل حتى ظهرت لي وليس فيها التباسُ

والتصوّر هو العلـــم الأول، ويُكتَسَب بالحـــدّ وما يجري مجراه، مثل تصوّرنا ماهيـــة الانسان ؛ والتصديق انمـــا يُكتَسَب بالقياس او مـــا يجـــري مجـــراه .

وطريقة العقـــل في الكشف عن الحقائق هي الحدس أو الفكرة . يقول ابـــن سينا : « الحدس جودة حركة للذهن الى اقتناص الحـــد الاوسط من تلقاء نفسهـــا : مثل أن يرى الانسان القمر، وانـــه يضيء من جانبه الذي يلي الشمس علـــى اشكاله، فيقتنص ذهنـــه بحدســـه

---

(١٠) التوفيـــق بين ارسطو وافلاطـــون

(١١) عيون الانباء ج ٢ ص ٣١٦

حـــدا اوسط وهو ان سبب ضوئه من الشمس ... والفكرة حركة ذهـــن الانسان تحســو المبادىء للمطالب ليرجع منهـــا الى المطالب » (١٢) .

ويروي لنـــا المسعودي في الموضوع أن الواثق باللـــه العباسي سأل من حضر مجلسه من العلمـــاء عن الطريق الذي ادرك الانسان بـــه الطـــب . فقال منهم قائل : زعـــم طوائف من الاطباء ان هذا الطريـــق هو التجربة فقط ، وحدوه بأن يتكرر الحس على محسوس واحد فـــي احوال متغايرة ، فيوجد بالحس في آخـــر الاحوال كما يوجد في اولها » (١٣) ويقول ابن ابـــي اصيبعة : « انـــه قد يكون حصل منها شيء بطريـــق الالهام، كما هو لكثير من الحيوانات ... فالثور يفرق بـــين الحشائش المتشابهة في صورها، ويعرف مـــا يوافقه منها فيرعاه، وما لا يوافقـــه فيتركه ، مع نهمه وكثرة اكلـــه وبلادة ذهنه » (١٤) . ويضيـــف « وبالجملة فانه قد يكون من هذا ومما وقـــع بالتجربة والاتفاق والمصادفة اكثر مـــا حصلوه من هـــذه الصناعة » .

وهنـــا اشارة مهمة لمـــا للصدفة والاتفاق من قيمة فـــي الاكتشـــاف العلمـــي .

ويواصل ابـــن ابي اصيبعة قائلا : « ثـــم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب مـــا شهدوه وادتـــه اليه فِطرهم ؛ ثـــم انهـــم تاملوا ما حصل لهـــم من الاشياء الكثيرة، واستخرجوا عللهـــا، والمناسبات التي بينهـــا فَتَحَصَّل لهم من ذلك قوانين كليـــة ومبادىء منها يبتدي بالتعلـــم والتعليم ». ويصنف ابـــن سينا النفس العاقلة مراتب تختص بميـــزات مختلفة، فهي اولاً مستعدة لقبول الصور العقليـــة، وتسمى اذن العقـــل الهيولاني ، ثـــم هي تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية ، وهذه

---

(١٢) شفـــاء ، المنطـــق ٢٥٩.

(١٣) مـــروج الذهب ، ج ٤ ص ٢٠ ط مصـــر

(١٤) عيون الانباء ج ١ ص ٢٦

مرتبة العقل بالملكة .

وتنتقل من هذه المبادىء والمقدمات الى المطالب الفكرية البرهانية، وتصير العقل بالفعل، ثم تكون الصورة العقلية حاضرة بالفعل ينعم صاحبها بالنظر اليها ، وهي العقل المستفاد، وهي عقل النفس القدسية التي ترتقي الى منزلة العارفين والصديقين .

والى هذه المعاني يرمي ابن سينا حين يقول :

هذّب النفس بالعلوم لترقى وذر الكل فهي للكل بيتُ
انما النفس كالزجاجة، والعلمُ سراج، وحكمة الله زيتُ
فاذا اشرقت فانك حي واذا اظلمت فانك ميتُ

فيرى ابن سينا ان « العملية العقلية لا بد منها لتكتسب النفس ملكة الاتصال بالعقل الفعال ؛ فهي في الواقع ليست سببا مباشرا للمعرفة ، وانما هي صقال للنفس فقط . واما المعرفة ذاتها فهي فيض، او اذا شئت فقل : انطباع في النفوس المجلوّة المتهيئة للارتسام ، وهذا يشمل سائر المعارف حتى المعقولات الاولى ؛ فحصولها فيض علوي، ونور الهي (وفي الخلاصة) اذن فالجسم لا بد منه للعملية العقلية ، التي لا بد منها لصقل النفس ، الذي لا بد منه للاتصال بالعقل الفعال وادراك المعارف منه ... » وفكرة الاتصال بالملأ الاعلى ، ليست عند ابن سينا مستمدة من الفلسفة الافلاطونية ؛ بل هذا القرآن بين يديه مفعم بقصص الانبياء وبأخبار الرسل الذين اتصلوا بالله سبحانه ؛ وفي القرآن قصة العبد الصالح الذي آتاه الله من لدنه علما ... « ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » .

فالنفس والجسد في مبدا امرهما مرتبطان زمنيا ، والنفس مغايرة للبدن، وهي جوهر روحي مجرد ، تتأثر في ملكاتها الخلقية بالجسد، والنفس باقية بعد انحلال البدن ، فاذا ما فارقته وزالت عنها العوائق المادية وانساقت الى اسواقها ، الى الكمالات ، فهي تتصل بالفيض الالهي . وذاك الشأن بالنسبة الى العارفين المتنزهين ، « فاذا وضع

عنهم درن مقارنة البـــدن وانفكوا عن الشواغل ، خلصوا الى عالـــم القدس والسعادة ، وانتقشـــوا بالكمال الاعلى ، وحصلت لهـــم اللـــذة العليـــا » (١٥) .

ويرفـــع ابـــو نصر الفارابي الدعوات في هذا الشان الى اللـــه ، جـــلّ وعـــلا ، مبتهلا بقوله : « امنحني فيضا من العقل الفعال ، يـــا ذا الجلال والافضال ؛ هـــذب نفسي بانوار الحكمة ، واوزعني شكر مـــا اوليتني من نعمة ؛ ارنـــي الحق حقا والهمني اتباعـــه ، والباطل باطلا واحرمني اعتقاده واستماعه؛ هذّب نفسي من طينـــة الهيولي ، انـــك انت العلة الاولى ، (الكامـــل) :

هذّب بفيض منك ربّ الكل مـــن كدر الطبيعـــة والعناصر عنصري

... واطلـــع على ظلماء (نفسي) شمسا من العقـــل الفعال ، وامـــطْ عنها ظلمات الجهل والضلال . واجعل مـــا في قواها بالقـــوة كامنا بالفعل ، واخرجها من ظلمات الجهل الى نـــور الحكمة وضيـــاء العقل ... » (١٦) وهذا ابـــن الهيثم عند وصفه لطريقته في البحـــث العلمي، وبعد عرضه لمـــا تحلّى بـــه من الصبر والتحفظ والنقـــد والتريث، يتوجه في البـــدء والنهاية الى قـــوة متسامية ، لتمتد رعايتها على كافة الخلق ، يسالها الهداية والعون والتوفيق : « وما نحن مـــع جميع ذلك بـــرآء مما هو في طبيعة الانسان من كـــدر البشرية ، ولكنـــا نجتهد بقدر ما هو لنـــا من القوة الانسانية ، ومن اللـــه نستمد المعونة في جميـــع الامـــور » .

فهـــو العالم الحق ، العامل المجتهد ، الطموح المتواضع ، العارف حـــق المعرفة بمنزلة البشرية وحدودها ، المؤمـــن بأن لا هادي لمـــن لـــم يهـــده اللـــه .

---

(١٥) الاشارات ج ٢ ص ١٩٦

(١٦) عيـــون الأنبـــاء ج ٢ ص ٢٢٨ — ٢٢٩

فالعلم في نظره جدّ وطلب من جهة ، وحدس والهام من جهة اخرى، وهو نور يقذفه الله في افئدة من اصطفى من عباده ، شارحا صدورهم كاشفا لهم الخفايا والاسرار .

« فاذا ثبت هذا وجاز ان يكون في الناس عالم ومتعلّم، وإمام ومأموم، وان تكون فيهم مراتب ودرجات، جاز ان يختصّ الله بحكمته ورحمته قوما ويصطفيهم من خلقه، ويجعلهم رسلا اليهم ويؤيدهم، ويفضّلهم بالنبوة ويعلمهم بوحي منه ما ليس في وسع البشر (ان يعلموه ليعلّموا الناس ويرشدوهم الى ما فيه صلاح امورهم دنيا ودينا) » (١٧) .

ويؤاخذ البيروني ابا بكر الرازي على كتاب « سر الاسرار » بعد ما كان متشوقا اليه نيفا واربعين سنة ، ولخّص قوله فيه بالآية الكريمة : (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور). وللرازي كتاب فيما يرومه من اظهار ما يدعي من عيوب الاولياء . فيقول ابن ابي اصيبعة في شانه : « وهذا كتاب ، ان كان قد الف والله اعلم ، فربما ان بعض الاشرار المعادين للرازي قد الفه ونسبه اليه ليسيء من يرى ذلك الكتاب او يسمع به الظن بالرازي . . . حتى ان بعض من يذم الرازي، بل يكفّره، كعلي بن رضوان المصري (ت ٤٦٠هـ) (١٨) وغيره يسمون ذلك الكتاب : كتاب الرازي في مخاريق الانبياء » (١٩) .

ويقول ابن سينا عن محمد بن زكرياء الرازي انه « متكلف

---

(١٧) من كتاب أعلام النبوة لابي حاتم الرازي في الرد على محمد بن زكريا الرازي وقد اتهم بانكار النبوة . رسائل الرازي ص ٢٩٩

(١٨) أبو الحسن علي بن رضوان الطبيب المصري ، ينسب اليه « كتاب في الرد على الرازي في العلم الالهي واثبات الرسل » ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٠٥

(١٩) عيون الانباء ج ٢ ص ٣٥٩

فضولي في شروحه في الالهيـــات وتجاوز قدره في بسط الجراح،والنظـــر في الابوال والبرازات ، لا جـــرم فضح نفســه وابدى جهلـــه فيما حاوله ورامـــــــه » (٢٠) .

نفـــي الخلاصة ان طلب العلم طموح وشوق للخروج من الحيرة ، و « لادراك ما بـــه تنكشف تمويه الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك المفتـــون » . فكيف يصل الانسان الى اليقـــين وكيف يقف على الحـــق الذي لا يمازجه شـــك ؟

لا شـــك ان العقل وسيلة قويـــة ناجعة،« حبانا بها اللـــه لننال ونبلغ من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيلـــه وبلوغه ». والحس منطلق للمعرفة لا بـــد منه ، والحدس والالهام لهما دور مهـــم في سبيل الحق ، والتجربة والرياضة معينان قويان يخرجان نفس الانسان الى كماله الممكن لـــه في حدّي العلم والعمل ...

ولكـــنّ من فوق كل ذلك فيض ربانـــي ، والهام من اللـــه يهدي بـــه من يلهم ، فيوقظ النفس من نومها ، « ويلهمها فجورها وتقواها » (٢١) ووحي اختَصَّ بـــه انبياءه الصديقين وفضّلهم على الناس جميعـــا ، وجعلهم ادِلّـــة لهـــم وايمّة يقتدون بهم ... فخلصوا الى عالـــم القدس والسعادة وانتقشوا بالكمال الاعلى ، وحصلت لهـــم اللذة العليا ؛ نفوس كاملة اتصلت بالفيض الالهـــي عند سدرة المنتهى تحت عرش الرحمـــان وفي عالمـــه الاول : ناظرة الى ذاتـــه (وجوه يومئذ ناضرة الى ربهـــا ناظـــــرة) (٢١) .

د. محمد سويسي

---

(٢٠) انظر مقال حسين نصر « مناظرة بين البيروني وابن سينا » ، رسالة اليونسكو ، جويلية ١٩٧٤ ص ٢٧ — ٢٩ ورسائل الرازي ص ٢٩٠

(٢١) سورة الشمس ، ٨